التأثير الدلالي للشائعة بين الضغط النفسي والإرهاب المجتمعي في نصّ " قطعة الخيط" لـ (غي دي موباسان)

The semantic effect of the rumor between psychological stress and societal terrorism in the text of "Piece of String "(Guy de Maupassant)

د.حورية مدّان*

تاريخ الإرسال: 2021/10/06	تاريخ القبول: 2021/11/04	تاريخ النشر: 2022/05/01

الملخص:

الشائعة ظاهرة اجتماعية شبيهة في انتشارها بألسنة النار التي تتغذى على ما يعترض طريقها، فيزداد لهيبها، وتتضاعف حرارتها، وتتسع مساحتها لكي لا تنطفئ حتى تأتي على الأخضر واليابس، كذلك الشائعة فهي تتحدّى قوانين التدليل، وتتجاوز ضوابط التوثيق، متحدّية الرقابة، ممارسة على من تتحدّث عنه ضغوطات نفسية، وإرهاقات ذهنية وجسمية رهيبة، تتحدّى قدرته على التحمّل، مهدّدة بذلك السلام النفسي والأمن الاجتماعي.

وإذا كانت شائعة الأمس، تنتمي إلى بيئة إعلامية قوامها اللسان، ونشر الكلام في آذان صاغية وقلوب خاوية وعقول لاهية فإنّ آثارها لا تقلّ انتشارا وتدميرا من شائعة اليوم المنتمية إلى بيئة اتصالية رقمية قوامها سرعة التقنية ودقتها.

في هذا السياق، تندرج هذه الورقة البحثية التي تستهدف دراسة ظاهرة (الشائعة) باعتبارها إحدى أخطر الظواهر الاجتماعية للتعرّف على طبيعة الشائعة وبُعديْها النفسي والاجتماعي من خلال تحليل دلالي للنص القصصي " قطعة الخيط" لـ غي دي موباسان.

الكلمات المفتاحية: الشائعة، الظلم الاجتماعي، الضغط النفسي، الأدب الواقعي.

المؤلف المرسل: حورية مدّان meddaneh@gmail.com

*جامعة يحي فارس، المدية. meddaneh@gmail.com

Abstract:

The rumor is a social phenomenon similar in its spread to the fire that feeds on what gets in its way, so its flames increase, its temperature doubles, and its area expands so that it does not extinguish until it comes on green and dry. So does the rumor it has psychological pressures, and terrible mental and physical exhaustion, which challenges his ability to bear, threatening psychological peace and social security.

And if yesterday's rumor belongs to a media environment based on the tongue, and spreading speech in listening ears, empty hearts and distracted minds, its effects are no less widespread and destructive than today's rumor that belongs to a digital communication environment based on the speed and accuracy of technology.

In this context, this research paper aims to study the phenomenon of (rumour) as one of the most dangerous social phenomena in order to identify its nature and its psychological and social dimensions through a semantic analysis of the fictional text "Piece of String" by Guy de Maupassant.Keywords: rumor, social injustice, psychological pressure, realistic literature.

تمهيد:

الشائعة ظاهرة اجتماعية نفسية تتنوّع بتنوّع أسبابها، وأهدافها، وبيئاتها. فقد تكون من أخطر وسائل الحرب النفسية التي تقلب الموازين، فتحيل النصر خسرانا، والنجاح فشلا، والصحة مرضا...والعكس صحيح. و قد تكون الشائعة مجرّد مزحة أو نكتة أو خبر عدائي ذي طابع انتقامي من شخص معيّن . قد تكون الشائعة دعاية سياسية مغرضة، وقد تكون خبرا اقتصاديا يستجلب الربح. ومهما تعدّدت أنواعها وأغراضها، فإنّ « لكلّ شائعة جمهورها»1، وهي تنتشر في بيئة اجتماعية تتوفر على عناصر تتيح ترديدها وترويجها، وفي مقدِّمة هذه العناصر الكيان الاجتماعي المتجانس ، فكريا ونفسيا، الذي يروّجها.

1- الشائعة:

1-1- تعريف الشائعة:

جاء في لسان العرب: « وشاع الخبر في الناس يشيع شيعا وشيعانا ومشاعا وشيعوعة ، فهو شائع : انتشر وافترق وذاع وظهر . وأشاعه هو وأشاع ذكر الشيء : أطاره وأظهره . وقولهم : هذا خبر شائع ، وقد شاع في الناس معناه قد اتصل بكل أحد فاستوى علم الناس به ولم يكن علمه عند بعضهم دون بعض . والشاعة : الأخبار المنتشرة . وفي الحديث : أيما رجل أشاع على رجل عورة ليشينه بها أي أظهر عليه ما يعيبه . وأشعت المال بين القوم والقدر في الحي إذا فرقته فيهم»[2]

وورد في المفردات في غريب القرآن:«الشِّيَاعُ:الانتشار والتّقوية .يقال:شاع الخبر، أي:كثر وقوي وشَاعَ القوم:انتشروا وكثروا، وشَيَّعْتُ النّار بالحطب: قوّيتها، والشِّيعَةُ:من يتقوّى بهم الإنسان وينتشرون عنه، ومنه قيل للشّجاع:مَشِيعٌ.»[3]

والشائعة لغة اسم فاعل من « شاعَ الأمر ، يشيع، شيوعا وشيَعانا، ومشاعاً: ظهر وانتشر...الإشاعة: الخبر ينتشر غير متثبّتٍ منه..الشائعة : الخبر ينتشر ولا تثبُّت فيه، (ج) شوائعُ»[4]. وتتقارب التعاريف في مجموع المعاجم، للدلالة على الأمر يُذاع في غياب المصدر الموثوق،ودليل الصدق، بُغية تحقيق أغراض سياسية أو اقتصادية أو غير ذلك.

ومن تعاريفها الحديثة قولهم: « هي عبارة عن خبر أو قصة أو حدث يتناقله الناس بدون تمحيص أو تحقق من صحته، وغالبا ما يكون غير صحيح،أو يكون مبالغا فيه سواء بالتهويل أم بالتقليل »[5].

ومن منظور علم النفس الاجتماعي[6] Social Psychology تعرّف الشائعة بأنّها « الترويج لخبر مختلق من أساسه، يوحي بالتصديق أو المبالغة بسرد خبر يحتوي على جزء ضئيل من الحقيقة، وهي تنتشر من خلال الكلمة الشفهية دون أن تتطلّب مستوى من البرهان أو الدليل »[7]

والشائعة، باعتبارها ظاهرة اجتماعية ذات آثار سيكولوجية وسوسيولوجية خطيرة، قد تدمّر الأفراد، كما قد تهزم الجيوش بغرس الخوف في القلوب، والبلبلة والفوضى بين الصفوف، وهو ما رامه المشركون حين أشاعوا في غزوة أحد بأنّ الرسول •

قُتِل . وهذا ما أكده تشرشل بقوله: «كثيراً ما غيّرت الحرب النفسية وجه التاريخ»[8] . والشائعة ظاهرة معقدة لا يمكن تحديد أسبابها الموغلة في خفايا النفس البشرية، كما لا يمكن توقع نتائجها التي قد تكون جسيمة، بإحداث القطيعة بين المتحابين، والحرب بين المتسالمين .ومن أشدّ أنواعها تدميرا، تذكر الشائعة الحاقدة، و «يكون مصدرها إمّا عدوّ خارجي يستهدف إحداث بلبلة في الرأي العام،وإمّا عدوّ داخلي من قبل أطراف ذات مصالح متضاربة سواء إيديولوجية أو سياسية أو اقتصادية ، وهذه أخطر أنواع الشائعات على الإطلاق »[9]

1-2- خصائص الشائعة :

تتصف الشائعة عموما باعتمادها على خبر يحتمل الكذب، لغياب الدليل على صحته، وينتشر الخبر بفعل المروّجين الذين يستجلبون به منفعة عامّة أو خاصة، و «للإشاعة شرطان أساسيان، فالشرط الأوّل ينحصر في أنّ موضوع الإشاعة ينبغي أن ينطوي على شيء من الأهمّية بالنسبة للمتحدّث وللمستمع، أمّا الشرط الثاني فينحصر في أنّ الوقائع الحقيقية ينبغي أن تتّسم بشيء من الغموض ...ينشأ عن انعدام الأخبار أو اقتضابها، أو عن تضارب الأخبار، أو عدم الثقة بها، أو عن بعض التوترات الانفعالية التي تجعل الفرد غير قادر أو غير متهيئ لتقبّل الوقائع التي تقدِّمها الأخبار إليه»[10]. وحاول العالم النفسي غوردون ويلارد ألبورت[11] Gordon Allport وتلميذه ليو بوستمان Leo Postman[12] أن يضعا معادلة لحساب شدّة الشائعة باعتماد الشرطين المذكورين، فكان قانون الشائعات الآتي:

شدّة الشائعة = الأهمّية ×الغموض[13]

فكلما كان موضوع الشائعة ذا أهمّية بالنسبة لمروّجيها، وكلما توافر فيها الغموض، كانت أشدّ ترددا، وأكثر انتشارا. علما أنّها تختلف في شدّتها باختلاف طبيعتها ، فقد « ترتسم موجات متناقلة من الحديث، وفي لحظات أخرى تنحدر شلالات من العنف. هي في بعض اللحظات تقتصر على حفنة من الناس، وفي لحظات أخرى تحتضن الملايين، وذلك قبل أن تستنفد طاقتها وتهجع ساكنة. »[14]

ومن أهمّ خصائص ظاهرة الشائعة ، قيامها على الاختلاق والتلفيق، أو الإضافة إلى ما هو واقع صحيح والمبالغة فيه، إلى جانب شدّة تأثيرها في الشخص الذي تروّج عنه خاصة إذا كان مروّجها مطّلعاً على نقاط ضعفه. كما تتميّز الشائعة بقابليتها للانتشار، بل هي تزداد انتشارا بقدر ما تحوي من مغالطات وأكاذيب.

ولا يمكن أن نتحدّث عن الشائعة في مكان ، وننفيها في مكان آخر، فهي « سلمية كانت أم مدمّرة، واسعة المجال أم ضيّقته، طويلة الأمل أم قصيرته، فإنّها ظاهرة قائمة ضمن نسيج كلّ ثقافة من الثقافات البشرية ، فمن المستحيل أن نتصوّر مجتمعاً بغير إشاعات. »[15]

وللشائعة بريقها الشاغل للفكر، فلو سمع الإنسان خبرا ما وهو يعلم أنّه حدث واقعي، فإنّه لا يلتفت إليه إلا بمقدار ما يعنيه الموضوع، ويحقق له منفعة ما، أمّا إذا قيل له إنّ الأمر لا يعدو أن يكون شائعة، فإنّه على عكس ما يُتوقّع منه، لا يطرح الخبر جانبا، ولكنّه يُقبل عليه بجوارحه ، و« ذلك يعني أنّنا لا نستطيع قتل الإشاعات بمجرّد وصمها بالعنوان (إشاعة) »[16].

ولمتلقي الشائعة تأثير قويّ في مدى ترديدها وانتشارها. ويحدِّد بعض الدّارسين أصناف المتلقي للشائعات في ما يلي:

«- المتلقي التقدي ...وهو ينقِّي الخبر من الشوائب، قبل أن ينقلها لشخص آخر.

- المتلقي العاطفي: ...حيث يجد في موضوع الشائعة ما يشبع رغباته وانفعالاته ، ويظهر هذا النوع في وقت الأزمات.

- المتلقي المحايد: وهو الشخص الذي يحمل شعورا محايدا تجاه الموضوع الذي يسمعه ، حيث لا يشكل له أهمّية ، فيتعامل معه بقلة اهتمام، وعدم اكتراث في نقله .»[17]

3-1 أسباب إطلاق الشائعات:

تختلف هذه الأسباب باختلاف الشائعات، وطبائع الناس، والدوافع المنطوية عليها نفوسهم، والأفكار المعششة في أذهانهم، ولعلّ من أبرزها، وأكثرها دورانا، نجد عاملَيْن بارزيْن هما :

العداوة بين مُشيع الخبر، وبين المُشاع عنه الخبر، تلك العداوة القائمة على الغيرة والحقد والضغينة الدفينة، ولهذا يتفنّن مطلق الشائعة في تخيّر أكثر الموضوعات

حساسية، وأشدّها ضررا، بالنسبة للخصم، ، غالبا ما تتضمّن هذه الشائعة أذى نفسيا وتشهيرا مسيئا ، حيث تجلب استنكار المجتمع، أو استهزاءه، أو نبذه لمن تطلق عليه الشائعة.

- الفراغ، مع غياب الوازع الديني والخواء الثقافي، الأمر الذي يفتح الباب أمام القيل والقال، والثرثرة ، ولوك أعراض الناس والخوض في أخبارهم. لقضاء الوقت لا غير.

1-4- نتائج الشائعات:

تعدّ الشائعة من أسلحة الحرب النفسية والاجتماعية التي تؤدّي إلى الإرتباك والبلبلة وتثير الفتنة، وتسبّب االأزمات، وتعصر بالأذهان فيتلاشى الشعور بالأمن والأمان، ولإطلاق الشائعات آثار جسيمة ونتائج وخيمة نذكر منها:

- انهيار القيم، وشيوع الأزمة الأخلاقية.

- انتشار الأمراض النفسية والاجتماعية

- تدمير قوى الخصم، وخاصة بالتعذيب النفسي

- تفكك الروابط الاجتماعية والأسرية ، وشيوع الضغائن والأحقاد، وزوال الثقة.

2- الشائعة من منظور الإسلام:

تتفق الأعراف وتتوافق الأخلاق والقيم الإنسانية على رفض إشاعة أخبار الناس التي يرفضون نشرها، وأسرارهم التي يفضّلون الاحتفاظ بها لأنفسهم،: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِينًا﴾ [الأحزاب/58]، «وهذا هو البُهت البيّن أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه ، على سبيل العيب والتنقص لهم»[18]

كما يحرّم الإسلام تحريما قاطعا إشاعة ما يمسّ الأعراض إذ يقول تعالى في محكم تنزيله:﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[النور/19]. وأمّا عقاب الدنيا فواردٌ في قوله عزّ وجلّ : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمْ

الْفَاسِقُونَ﴾ [النور/4]، وإذن فهو حدّ القذف، أو التعذير، وفق الشروط المتوفرة لثبوت صدور الشائعة.

وتأبى النفس الخيّرة أن تكذب، وتغتاب، وكلّ شائعة تنطوي على كذب، وتخمين، واختلاق للأحداث، وتلفيق للأقوال، وهي من المساوئ التي يحذّرنا الله منها إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿ولا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[الحجرات/12]، فأخلاق الإسلام تملي علينا أن نمسك ألسنتنا عن أذية الناس، وأن نتبيّن ونتثبّت من كلّ ما يرد إلينا من أخبار﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[الحجرات/6].كما ينبغي أن نحسن الظنّ، ولنا في حادثة الإفك أفضل الدروس ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[النور/ 12] ففي الآية الكريمة، يفضح الله مكائد المنافقين، ويدعو ⊙ ، المؤمنين إلى أن يظنوا الخير بأنفسهم، ومن باب أولى بأمّ المؤمنين، السيّدة عائشة رضي الله عنها.

3- الشائعة في الأدب :

1-3 ملخص قصة (قطعة الخيط)

انبنت قصة(قطعة الخيط)[19] La Ficelle للأديب والكاتب الفرنسي" غي دو موباسان Guy de Maupassant على الشائعة، موضوع هذه الدراسة. و"غي دو موباسان" كاتب وروائي فرنسي اشتهر ، ضمن ما اشتهر به، بفنّ القصة القصيرة، ذات الطابع الواقعي.

فضاء الأحداث مدينة جودرفيل Goderville الصغيرة ، بطرقها الضيّقة وسوقها الأسبوعي، وساحتها التي تشهد حركة القرويين في الذهاب والإياب مع زوجاتهم وأطفالهم وحيواناتهم، إذ يشتغل معظمهم في الفلاحة بمهامها المرهقة التي تتكرّر مستغرقة حياتهم .

تملأ أجواء السوق الأسبوعي ضوضاء صاخبة متواصلة، وتعلو فضاءها رائحة الأبقار، والحليب، وترتفع هنا وهناك ضحكات المزارعين الفرحين باللقاء بعد الغياب.

يطلّ (السيّد هوشكورن) Maître Hauchecorne وهو شيخ أعياه الروماتيزم، على ساحة (جودفيل) وسرعان ما ينحني ، رغم آلام الظهر والركبتين، على حبل صغير مرمي على الأرض، ليطويها في حركة خاطفة ويدسها في جيب سرواله، مدفوعا بكرهه للتبذير،

وميله إلى جمع ما قد يفيده يوما ما . ولكنه لمح نظرة غريمه (السيّد مالاندا) Maître Malandain[20]، الذي لم تفته الحركة، ورمقه باحتقار من عتبة دكانه. حينها حاول (السيّد هوتشكورن) التظاهر بأنّه فقد شيئا ما، وشرع في التظاهر بالبحث عنه متحمّلا الانحناءات المؤلمة حتى اختلط بين الزحام، وفرّ من مراقبة عدوّه (السيّد مالاندا).

وفي المساء ، وحين هدأت الحركة، وبدأت الضوضاء تخفت، انطلقت ضربات طبل في الساحة وشرع منادي المدينة يقرأ إعلاناً موجّها لساكني جوردفيل بفقدان حقيبة جلدية تحوي خمسمائة فرنك وأوراق عمل تخص (السيد فورتين هولبرك) Maître Fortuné Houlbréque عسى أن يعيدها من وجدها إلى المحافظ مقابل جائزة بعشرين فرنك تقدم له أو لكل من لديه معلومات عنها .

تلقى الناس الخبر بفضول، واشتغلوا بالنقاش والحوار والتساؤل عن توقعاتهم في الموضوع قبل أن يتقدّم عريف الشرطة سائلا عن السيد (هوشكورن).وحين لاقاه المحافظ، أخبره بأنّ أحدهم رآه يلتقط محفظة السيّد (فورتين هولبرك) الضائعة في الشارع . وحين أجابه (هوشكورن) بأنّه لم يلتقط إلا قطعة خيط، لم يصدّقه المحافظ. فصمت بفعل الخوف والغضب.

واستمرّ اتهام السيد(مالاندا) لـ (هوشكورن) بإخفاء المحفظة، وانتشر الخبر سريعاً حتى أحاط الناس به وشرعوا يتساءلون عن الحادثة، وهو يوقفهم في الطريق ليقص عليهم حكاية الخيط الصغير أين شاهده وكيف اِلتقطه، محاولا إثبات براءته ، بإخراج بطانة جيوبه، الأمر الذي يزيد الناس استهزاءً به وتكذيبا له . واستمرّ في حكاية ما حدث له، رغم الإحباط واليأس.

وفي ظهر اليوم التالي ظهرت المحفظة المفقودة، على يد القروي (ماريوس بومال) Marius Paumelle الذي سلمها إلى صاحبها، ممّا أسعد (السيّد هوشكورن) وأراحه، فانطلق يتحدث عن قصته مع كلّ من يقابله، بما فيهم الغرباء الذين لا يعرفهم،و لكنّه أحسّ بما لا يدع مجالا للشك، أنّ الناس يتسلّوْن وهم ينصتون إليه، غير مصدِّقين ما يقوله.

وفي موعد السوق الأسبوعي التالي، اِلتقتْ عيْنا (السيّد هوشكورن) بعيْنيْ (مالاندا) الذي ضحك حين رآهُ وصرّح له بعضُ من لقيهم بأنّه مخادع، وأنّه أقنع صديقا له بإعادة

المحفظة حين اكتشف أمره، فتأكّد من أنّ المدينة تبنّت الشائعة التي أطلقها (مالاندا) وأنّ الناس لن يصدِّقوه مهما قال أو فعل،فأصابه الإحباط، وانتابته الكآبة والغضب، ثم طغى عليه الشعور بالعجز. ولم يكف عن إعادة حكايته بتفاصيل جديدة كلّ مرّة، على كل من يلتقيه،وازداد تكذيب الناس له، واعتبروا حكايته نكتة يضحكون لها، فيئس من إثبات براءته، وهزل مع الوقت، وساءت أحواله، وفقد عقله ، و في أواخر ديسمبر لزم الفراش ، ثم فارقته الحياة أوائل يناير ؛ وكان في آخر حمىَ اعترته يصيح محتجاً ، معيداً ومكرراً بصوت مرتفع: قطعة خيط صغيرة .. ليست إلاَّ قطعة خيط ، يا سيدي أُنظر ها هي!!

2-3- و اقعية القصة:

تلك هي قصة (قطعة الخيط)، وهو نص واقعي، يصف حياة القرويين بتفاصيلها الحقيرة، تتفاعل فيه الشخصيات، وتتوالى الأحداث، بأسلوب وصفي وتحليلي دقيق، للجانبين النفسي والاجتماعي معاً. وتتداخل أبعاد الجانبين في هذا النص تداخلها في واقع الحياة، بشكل يصعب معه تحديد الخطوط الفاصلة، لأنّ المجتمع لا شكّ في أنّه يؤثر تأثيرا قويا في نفسية الفرد، بل وقد يوجّه سلوكه، ويطبع فكره، حتى يسلبه أحيانا إرادته، ولكن، من ناحية ثانية، لنا أن نتساءل عن طبيعة المجتمع، وحقيقته، أليست في جوهرها مجموع أفراد، بنزعاتهم الخاصة، وقناعاتهم الذاتية؟

وفّق نص (قطعة الخيط) بواقعيته بين هاتين المفارقتين، بين الجانب الاجتماعي ممثلا في قرية (جودرفيل) وبين الجانب النفسي ممثلا في شخصية (السيّد هوشكورن) والصراعات الداخلية المكثفة التي يعيشها جرّاء شائعة انطلقت من الفضاء الواسع للبلدة بادية أوّل وهلة في غاية البساطة باعتبارها خبرا أقرب إلى ا لمزحة منه إلى الكذبة ، أطلقه السيّد (مالاندا) ، ومعروف أنّ «الإشاعة بحسب التعريف ظاهرة اجتماعية، فلا بدّ من شخصين على الأقلّ لتكون إشاعة. ومع ذلك ففي أيّة لحظة يعينها، يكون فرد واحد هو عجلة الأقصوصة، ممّا يدور في ذهنه هو سرّ الأمر كلّه»[21]. وغالبا ما يختلق ذلك الفرد الإشاعةَ لغرض ما ، وفي حالة (مالاندا) نعلم من أحداث القصة أنّ بين الشخصيتين اختلافا سابقا، لم يتجاوزاه . وسرعان ما تنقلب الأمور حين تزحف الكتلة الجماعية بكلّ ثقلها على الفردية المستهدفة بالشائعة، ممثلة في (السيّد هوشكورن)وتضيّق عليه الخناق تدريجيا، وتحاصره بفضولها في كل موضع يقصده، وتتلقاه الألسنة بالصوت الواحد معبّرة

عن قناعة الجماعة بصحة الشائعة، مولدة لديه شعورا بالألم والقهر ، وسرعان ما تحلّ الرغبة في الفرار محلّ الحاجة الملحة إلى تبرئة النفس ، إلى أن تتفاقم الأمور ، وتستحيل حياته إلى مأساة حقيقية ،لا راحة منها إلا بالموت.

3-3- مراحل نشأة الشائعة و انتشارها في القصة:

(السيّد هوشكورن) يشاهد قطعة خيط ملقاة على أرض الساحة، ينحني ليأخذها تحسّبا لحاجته إلها مستقبلا، علما أنّه مقتصد، ويؤمن بأنّ كل ما يمكن أن يفيد قابل للإلتقاط.

رآهُ (السيّد مالاندا) الذي تجمعه به خصومةٌ سابقة

في اليوم نفسه، والتوقيت ذاته، تضيع محفظة في السوق ، تحمل دراهم

ووثائق .

يخبر (مالاندا) رئيس البلدية بأنّه شاهد (هوشكورن) يلتقط المحفظة

ينفي (هوشكورن) الخبر، ويعلن أنّه التقط قطعة خيط

يتلقاه الجميع بالتكذيب والاستهزاء والسخرية ، حتى بعد إيجاد المحفظة

تتأزم حالة (السيّد هوشكورن)

- انهيار

- موت

يتّضح من هذا المخطّط أنّ مصدر الشائعة كان فردا، اختلقها لعدوّه، انتقاما منه، إذ قام بتأويل شخصي لواقعة شهدها، سواء كان التأويل قصديا أو غير قصدي، وأنّ البيئة الاجتماعية التي تلقت الشائعة رحبتْ بها للخروج من وطأة الضجر الخانق، وتمّ استيعاب الخبر جماعيا في خبث ولاوعي، وتمّ وترويجها بقسوة أسكتت صوت المُدان واستهزأت به، وسلطتْ عليه أنواع التعذيب النفسي إلى أنْ انهار وفارق الحياة.

3-3- عناصر مفعِّلة للشائعة:

القصّة ذات آفاق دلالية واسعة، رغم قصرها، نتيجة تكثيف الراوي للأحداث والأفكار، واستثماره لمختلف العناصر المتاحة في واقع القرويين .

الحقل الدلالي لـ (جودرفيل) جمع بين السوق الأسبوعية، والقرية، والمنازل، والساحة، والقرويين، والطرقات ، والنزل، والكنيسة. ورغم محدودية الفضاء المكاني إلا أنّه يرتبط بجملة العادات السلوكية والنشاطية التي يمارسها السكان فيه كلّ يوم و كلّ أسبوع ، فالأحد للكنيسة، والثلاثاء للسوق الأسبوعية...والحقل الدلالي للإطار الزماني لم يتجاوز الصباح ، بين التاسعة والعاشرة، الليل، الغد، ساعة في منتصف النهار، كل اليوم، الأحد الموالي، الآن، نهاية ديسمبر، ا أيام الأولى لشهر جانفي، وهو حقل محدود أيضا، هو فضاء تملأه الجماعة المتكلتة تلقائيا، دون سابق اتفاق، تملأه بفضولها، وتجسسها، بتتبّعها لكلّ شاردة وواردة، بمراقبتها المستمرّة لكل صغيرة وكبيرة، مراقبة لا تستجلب تعبا أو عناء، وإنّما نشعر بأنّها تشكل لأصحابها جوّا من المرح و المتعة ، وسبيلا للتخفيف من وطأة الفراغ أو ثقل الروتين . وهي سمات خاصة بالبيئة الاجتماعية في (جودرفيل) ، ولعلّ فيها يكمن سبب ترديد القروويين للإشاعة، وهو البحث عن المتعة، وقهر الضجر، إذ سَرتْ الشائعة بينهم سريان الهواء المنعش في يوم حارّ خانق، وإن بدأتْ بدافع عدائي دفين في نفس (مالاندا)، ودون تلك الدوافع لم يكن للخبر أن ينتشر ذلك الانتشار السريع ، فالإشاعة « تنطلق وتمضي في رحلتها في وسط اجتماعي متجانس، بفضل الدوافع القوية عند الأشخاص القائمين بنقلها.»[22].

الجماعة في القصة، تسحق الفرد وتنتزع منه إرادته ووعيه،فهي شبيهة بالقطيع الذي يرتبط غريزيا، إذ تكرّر الكلام الواحد،وتفكر بالطريقة ذاتها، تشاهد بعين الفرد، وتسمع بأذنه، دون أن تحترم خصوصيته، بل هي تنتهك هذه الخصوصية دون أدنى شعور بالذنب لأنها لا تعي أصلا بأنّ تقترف المحظور.

ولا يقتصر المكان على كونه فضاء للقرويين فقط، وإنما يسع هؤلاء وحيواناتهم أيضا، يختلط هؤلاء بأولئك طول مجريات الأحداث، ويتلقاهم القارئ بتوصيف خارجي متشابه :

Sur la place de Goderville, c'était une foule, une cohue d'humains et de bêtes mélangés. Les cornes des bœufs, les hauts chapeaux à longs poils des paysans riches et les coiffes des paysannes émergeaient à la surface de l'assemblée).[23]

فالحشد البشري يختلط بالحشد الحيواني ، وقرون الثيران بالقبعات العالية للمزارعين، ورؤوس نسائهم. يتحد القرويون في القصة مع حيواناتهم جرّاء ذلك التوصيف مظهرا وسلوكا ، بل ورائحة تتحد لكي لا تترك مجالا للتفريق بين مصدرها الإنساني ومصدرها لحيواني:

(Tout cela sentait l'étable, le lait et le fumier, le foin et la sueur, dégageait cette saveur aigre, affreuse, humaine et bestiale, particulière aux gens des champs).24

وتتأكد سيطرة الجماعة في النص من خلال صيغ الجمع الطاغية على الشخصيات والأحداث.

(Les paysans et leurs femmes s'en venaient …Les mâles allaient, à pas tranquilles …Les uns tiraient … fouettaient …portaient … sortaient … marchaient … formaient…avaient tiré ... gisaient par terre... maintenaient ...)

ينقل الراوي بهذا التوصيف سلوكات الناس الاعتيادية، لا تمييز بينهم، الجميع يخرج ويدخل، يحمل ويضع، يجرّ ويدفع. وكذلك حضور الضمير (on) وهو ضمير محايد يشير إلى شخص أو أكثر، وغالبا ما يُستعمل للدلالة على المفرد الغائب الدال على جمع غير محدّد، إشارة إلى أنّ الحدث المنسوب له، أو الصفة المطلقة عليه هي مستغرقة في الجمع المقصود اِستغراقها في الفرد. وينضمّ إليه في سياقه اللغوي لفظة (Chacun) الدالة على (كلّ واحد) ولفظة (Tout le monde) أي كل العالم، أو كلّ الناس ، وهما لفظتان تستعملان في صيغة المفرد للدلالة على الكتلة الجماعية المتحدة. ومن تلك التعابير الواردة في القصة نذكر قول غي دي موباسان :

(Chacun racontait ... On prenait ...Tout le monde fut debout ... on courut .... On est prié ... On entendit ... on se mit à parler...On finissait le café... On fouilla... On ne trouva rien... On lui disait... On avait l'air de plaisanter ... On ne paraissait pas convaincu... On l'accusait... On le croyait...)

هذه التعابير توحي بغياب الخصوصية الفردية ، فالجماعة هي الفاعلة والمتفاعلة، والأحداث تتكرّر أو تستمرّ على شكل عادات وسلوكات تتبناها جميع

الشخصيات مشكلة لحمة لا تنفصم،والأمر يتوافق وطبيعة الإنسان، لذا تعدّ قصص غي دي موباسان من الأدب الطبيعي، ذي الاتّجاه الواقعي ، فـ «الإنسان مدني بطبعه، أي إنّ لديه ميلا فطريا ورغبة شديدة في أن يعمل في جماعات وأن يندمج في الهيئات والطوائف، وهي صفة تتجلى بأجلّ معانيها في الإنسان ،وإن كانت توجد في بعض أنواع الحيوانات»[25].

وحتى وهو ينقل سلوكات الفرد الأعزل في مواجهة الجماعة، نجد غي دي موباسان يستعمل ضمير الغائب (il) ، وهو الضمير المغيّب رغم كومة الأحاسيس، وزخم المشاعر، يبقى الضمير الحاضر الغائب (هو) نشاهد أفعاله، ونسمع أقواله، ونحس إحساسه، ونتفهم أفكاره، ولكنه (هو) المنعزل في قوقعة لا يخترقها ليتحرّر من قيود الحشد المنقضّ عليه، وتستمرّ محاولاته اليائسة لإسماع صوته، دون جدوى

(Il va vers la place… il aperçoit par … il se baisse avec peine… il a toujours eu mal … Il prend … il se prépare … Il cache vite ce qu'il a trouvé … il fait comme s'il cherchait … il ne trouve point… il s'en va …Il se perd aussitôt …)

والقصة تجلي هذه الطبيعة البشرية في أقوى صورها، وأخبثها، هي صورة اللحمة التي تلغي الفردية ، والخصوصية، وتذيب الذاتية في الحشد المتجانس، ولذا فإنّ «الإشاعة إنّما تسري فحسب ما بين الأفراد متشابهي العقول، فحيث يكون المجتمع غير متجانس بدرجة مسرفة، وحيث قلّت الاتّصالات بين جماعاته المندرجة، فإنّه يكون من المحتمل أن تتجنّب الإشاعة اجتياز الحواجز الاجتماعية، ومن ثمّ يضيق سريانها.»[26]

وفي القصة يمكن للجميع أن يعرف كلّ شيء عن الجميع. هو رفع للحدود الداخلية،لا حاجز يحول دون اطلاع الجماعة على كل صغيرة وكبيرة في حياة الفرد، والأفراد مرتبطون ببعضهم ارتباطا يمنعهم من الارتقاء والتطوّر ويشدّهم إلى بدائيتهم وحيوانيتهم، والفرد ضعيف أمام هذا الكمّ من الضغوط، والوقوف ضد تيّار الجماعة من شأنه أن يصيبه بالقلق والتوتر، وقد يصل الأمر إلى التعذيب النفسي في حال تصاعد الأحداث،حتى لتظهر الجماعة في قمة القسوة ، والوحشية المؤدية بالفرد إلى الاغتيال النفسي .

3-4- الشائعة وسيلة قهر:

يعالج الراوي قضية الظلم الاجتماعي بذكاء محكم، وأسلوب شيّق، فمنذ بداية القصة، يشرك القارئ في حلّه وترحاله، ويطلعه على كلّ الأحداث، ويعرّفه بجميع الشخصيات، ولا يخص نفسه بتفصيل دقيق، ولا يكتم عنه معلومة مهما هانت، حتى إذا انحنى البطل على قطعة الخيط في بداية الأحداث، جعل القارئ يتعرّف معه على الشيء الملتقط من الأرض ، فلم يُقصَ القارئ من نظرة ملقاة، أو حركة مؤداة، أو قول ملفوظ أو فكرة مستبطنة. ومن شأن هذه الشراكة بين الراوي والقارئ أن تولّد تعاطفا كبيرا مع البطل، لأنّهما يتتبعان ما يتعرّض له من مضايقات جماعية تتضاعف لتصبح قهرا واستبدادا وتعذيبا ، وهو الضعيف المُدان ظلما، ذو الصوت الخافت الذي لا يُسمع،رغم تكرار سرده لقصّته، وهو لا يملك غير ذلك، في كلّ مرّة يعيد الخبر، ويصف التقاطه لقطعة الخيط، ويحدّث عنه ، ولكن ، يضيع صوته بين الضحكات المرتفعة، وتتلاشى جهوده وسط أجواء الاستهزاء والسخرية والتكذيب ، فتتلاشى قواه، ويتقوقع على نفسه في فتور وخور، وكأنّه حشرة حقيرة وقعت بين يدي وحش كاسر يلهو يتعذيبها، ويتمتع بمشهد احتضارها.

وقد يشعر كلّ من الراوي والقارئ أنّهما يسندان البطل، ويدعمانه، دون عبارة صريحة بالإسناد والدعم، لا رأي لهما في القصة، ولا وجود لأحدهما أو كليهما ، لكنّ الراوي يسنده بروايته للأحداث كما وقعت، والقارئ بمتابعته للرواية وتعاطفه مع الضحية، وكلاهما يُدين الجماعة الظالمة، يبغضها وكرهه لها، وكشفه لحقيقتها وطبيعتها الحيوانية. ولهذا، قد تشكل القصة نفسها انتقاما للضحية من الجاني، لأنّها أرّختْ لظلم الظالم بتفاصيله المؤدية إلى موت الضحية بعد التعذيب النفسي، الذي يمثل أقسى أنواع التعذيب، خاصة مع تذكره لتفاهة السبب، قطعة خيط، كانت قطعة خيط.

خاتمة:

في القصة، دعوة إلى إعادة النظر الواعية في السلوكات التي تبدو لنا قيما واتخذناها كذلك، ولم نعُد نكترث للآثار التي قد تحدثها اعتقادا منّا بأنّ الجماعة لا تتفق إلا على صواب. هي دعوة إلى نبذ الظلم والفضول والالتفات إلى الفرد، في ضعفه أمام الجماعة، فليس صوته الخافت أمام أصواتها المرافعة، دليلا على كذبه، وعذرا لإدانته.

كما أنّ القصّة تتضمّن رؤية جديدة لعلاقة الفرد بالجماعة، هي علاقة دقيقة ، تقف بين علاقة الفردية الذائبة في الجماعة ، فلا وجود للذاتية المستقلة فيها، ومن أمثال هؤلاء يتشكل مجتمع

(جودرفيل) ، وبين علاقة الفردية المتمسكة بخصوصيتها، الرافضة لضغط الجماعة، ويمثلها السيّد (هوشكورن) في قطعة الخيط.

وقد يخلص القارئ في نهاية القصة إلى الحزن والأسف على موت البطل الضحية، بعد معاناة نفسية قاهرة، ولكنّها نهاية تدقّ ناقوس الخطر في أذنيه، منعا من الانسياق اللاواعي وراء التوجّهات الجماعية وتستشعره بضرورة احترام خصوصية الفرد، والتفكير بما يضمن له حريته، تحقيقا للعدالة الاجتماعية التي لا تتحقق إلا باحترام الفردية ، وهو ما يشكّل انتصارا للبطل في نهاية (الخيط الصغير) .

الهوامش:

1 علم نفس الإشاعة (سلسلة علم النفس) ، الشيخ كامل محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت،ص 133.

2 لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، م8، ص177 (ع ي ش)

3المفردات في غريب القرآن(ط.الباز)، الراغب الأصفهاني، تح: مركز الدراسات والبحوث ، مكتبة نزار مصطفى الباز، 1430هـ-2009م،فصل (شيع)، كتاب الشين.

4المعجم الوسيط المدرسي ،جلال الدين الهواري، دار ومكتبة هلال للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص 921-922.

5 موسوعة علم النفس والتحليل النفسي ، طه، عبد القادر (2003)، دار غريب، القاهرة، مصر، ص22.

6 هو علم يدرس علاقة الفرد بالجماعة، وعلاقة الجماعات بعضها ببعض.

7 السلوك الاجتماعي ، قراءات في علم النفس الاجتماعي وتطبيقاته، محمود عكاشة ومحمد شفيق، بلد برنت للطباعة والتصوير، مصر ، 1998م، ص 165.

8 النظرية الإسلامية في الحرب النفسية، محمد جمال الدين محفوظ (د.ت)، دا ر الاعتصام، القاهرة، مصر، ص77.

9 الأبعاد النفسية والاجتماعية في ترويج الإشاعات عبر وسائل الإعلام ، وسبل علاجها من منظور إسلامي ، عبد الفتاح عبد الغني الهمص وفايز كمال شلدان، مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدِّراسات الإنسانية، يونيو 2010م، المجلد 18، العدد 2، ص 174.

10 علم نفس الإشاعة ، الشيخ كامل محمد محمد عويضة(مرجع سابق)، ص 55-

11 عالم نفس أمريكي اهتمّ بدراسة الشخصية (1897-1967)

12 عالم نفسي أمريكي ، روسي المولد اهتمّ بدراسة الذاكرة (1918--2004م)

13السلوك الاجتماعي ، قراءات في علم النفس الاجتماعي وتطبيقاته، محمود عكاشة ومحمد شفيق، بلد برنت للطباعة والتصوير، مصر ، 1998م، ص 166

14علم نفس الإشاعة (سلسلة علم النفس) ، الشيخ كامل محمد محمد عويضة (مرجع سابق) ، ص111.

15 المرجع نفسه .

16 المرجع نفسه، ص 145.

17 السمات النفسية والاجتماعية لمروّجي الشائعات ومتلقيها ، خالد إبراهيم الكردي، ورقة مقدمة في الدورة التدريبية عن " أساليب مواجهة الشائعات" ، الرياض، كلية التدريب، قسم البرامج التدريبية في الفترة من 20-24 أبريل، 2013، ص 22.

18 تفسيرالقرآن العظيم، ابن كثير(774ه) ، تحـ: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، 1420ه/1999م، ط2،م6، سورة الأحزاب ، ص 480.

19 الناشر: Le Gaulois، تاريخ النشر " 25 نوفمبر 1883 م

20 نعلم من أحداث القصة أنّ بين الشخصيتين اختلافا سابقا، لم يتجاوزاه

21 علم نفس الإشاعة (سلسلة علم النفس) ، الشيخ كامل محمد محمد عويضة (مرجع سابق)،ص 71

22المرجع نفسه،ص 65

23 Guy de Maupassant, La Ficelle ,Miss Harriet ,Edition Louis Conard,1908(p 216) . Texte original .

(Sur la place de Goderville, c'était une foule, une cohue d'humains et de bêtes mélangés. Les cornes des bœufs, les hauts chapeaux à longs poils des paysans riches et les coiffes des paysannes émergeaient à la surface de l'assemblée).

24 Ibid. Page 217

25 السلوك الاجتماعي ، قراءات في علم النفس الاجتماعي وتطبيقاته، محمود عكاشة ومحمد شفيق(مرجع سابق)، ص 7.

26 علم نفس الإشاعة (سلسلة علم النفس) ، الشيخ كامل محمد محمد عويضة (مرجع سابق)،ص 57.

**** *** ***